فزان بين يدي الأتراك والطليان

للأستاذ أحمد رمزي بك

— ٤ —

إيطاليا تسترد فزان :

حينما يتكلم جراتزياني تنصت السموات العلا وينتبه الناس آذانهم ، إلا أهل فرنسا فهم لا يتركونه من غير أن يناله رذاذ من نقدهم : أنظر إليه يقول : « لا توجد على الأرض دولة يوسعها إن تفخر أنها ختمت حلة استعمارية بالنصر الذي ختمنا به حملتنا على الكفرة وفزان : ليس بوسع الفرنسيين أن يدّعوا شيئاً من ذلك ، بل نؤكد أمام العالم تفوقنا عليهم رغم الانتقادات التي توجه إلينا من سكان ما وراء الألب (يقصد فرنسا) أو سكان ما وراء المانش (يقصد بريطانيا) » .

ثم انظر إلى ردهم الحاسم بعد فتحهم فزان في سنة ١٩٤٣ فيما نشره الفرنسيون بسخريتهم المعروفة :

qne répondre à telle vsntardises
beau de lion dovtd'ln oonp de griffe nos troupes ont dépouillé , maître crszlani

أنصت إليه في مؤلفه :

يحدثنا من نفسه : Pace Romsna In libia

« ها قد أعطيت الكلمة لتحكيم السيف وإنها لكلمة مقدسة حينما نريد أن نفرض إرادتنا على خصم عنيد ؛ إنها مقدسة ولائمة مرة حينما تقذف في وجه الأهالي الوطنيين الذين صمت آذانهم من سماع أي منطق إلا ما توجيه إليهم مقولهم المهجية ، أولئك لا يفهمهم شيء سوى استعمال القوة تصحبها العدالة » .

أرأيتم مثل هذا إلا في عهد قيصر !!!

فهو إذن يشيد بعمل الحكومة الفاشية التي قررت فرض إرادتها باستعمال السلاح يقول إن سياستها تتلخص في جملة واحدة « أصبح من المهم الخروج من الحالة المبهمة السائدة في المستعمرة وأن تفرض إرادة الحكومة على كل جهة ، وأن يكون فرض التسليم والخضوع شرطاً نهائياً Sine qua non لكل عمل سياسي مع الأهالي ، فعلى كل من يباشر أي سلطة حكومية أن يواجه أهل البلاد بهذه الحقيقة التسليم بلا قيد وشرط أو الحرب بلا هوادة » .

وكانت هذه هي السياسة التي نادى بها غوليي والذي وقف من أول الأمر ينادي « بأن حق إيطاليا من الناحية الدولية في امتلاك المستعمرة حق ثابت لا نزاع فيه ، وأن عناد الأهالي ما هو إلا ثورة يحركها بعض الرجال المتعطشين للسلطة تقودهم أطماعهم الذاتية فليس هناك روح قومية أو حركة وطنية تحركها عواطف عالية أو روح جماعية ، وإنما هناك أطماع وأغراض وأهواء : فلنضرب ضرباً قاسياً » وهل وجد المستعمرون في مدغشقر وفي أندونيسيا غير هذا المنطق ؟

وجاء جراتزياني ينفذ خطته لاحتلال فزان على طريقته الخاصة وإلا فانظر إلى تشكيلاته للوحدات التي يقودها : فهي تسير من نفسية يجدر بنا تتبعها :

١ — توزع قوات الاحتياطي على أنحاء الجبهة بطريقة تمكن من الاستفادة منها بغير إضاعة وقت ولكي يسهل تجمعها واستعمالها إذا احتاج الأمر إليها لضرب العدو ضربات قاصمة .

٢ — تقسم الجبهة إلى أقسام ، وأن يتولى كل في دائرته مطاردة العدو بواسطة أفواج متحركة Colonne mobibe تبدأ عملها من نقط ارتكاز مختلفة ومتباعدة ولكنها متجهة في سيرها إلى غرض واحد — أو تظهر أنها متجهة لأغراض متعددة في وقت واحد مع تلاقيها عند هدف واحد ، وبذلك تتوزع قوات العدو المتجمعة أو تتفرق أو تثبت في أماكنها .

٣ — يراعى أن تستعمل الوحدات على أساس العمل على جبهة واسعة الأطراف ، أي تعمل كل واحدة على أنها مستقلة تماماً في تحركها إلى أبعد مدى وتترك كل قواعد وأساليب التعبئة القديمة ، وتعتمد الوحدات على مرونتها في الحركة والتقدم والعودة بدون أن تلجأ إلى طلب مساعدة الوحدات الأخرى : يفهم من هذا أنه اتبع نظام دوريات دائمة متحركة بانتظام[1] .

وقد تبين من كتابته رأيه في المقاتلين العرب ، فهو لا ترهبه كثرتهم العددية بل يقرن النصر بالقرار الحازم والتقدم للهجوم ؛

(١) وهو ما اتبعه الصهيونيون في منطقة النقب .

تلهم لديه اكتشاف أماكن تجمع الثوار ومهاجمتها بغير تردد ويوصي بأنه عند التلاقي يجب إشغال العدو وقبول المعركة ، فإذا حاول الهرب الانسحاب لا تتركهم قوات الجيش ولا تمكنهم من الراحة واستعادة شجاعتهم ، بل يجب مع انسحابهم إصابتهم مادياً والفتك بهم حتى تفنى قوة المقاومة لدى العدو ولا يستطيع استعادتها .

ثم عاد فقرر « أنه لا يصح احتقار شأن الثوار ، بل يحسن إعطاؤهم ما يستحقونه وليذكر الطليان أن هزيمة العرب وإن بدا مظهرها قوياً في البدأ إلا أنها لا تستند على قوة دافعة مستديمة ، ولذلك تضعف وتهبط في النهاية فالقاتلة من الثوار لا يسعهم أن يصمدوا في المعركة طويلاً أمام قوات نظامية مدربة تدريباً أوربياً »

ويهمنا أن نتعرف إلى جميع آرائه فينا فهو يتكلم بصراحة ويوسعنا أن نصلح أخطاءنا دائماً إذا اطلعنا على مايكتبه عنا أمثال هؤلاء ويقرر « أن حاجات العرب في الميدان محدودة . ولذلك لديهم مقدرة فائقة على جمع وسوق قوات كبيرة واستعمالها في ميادين مختلفة والعرب مقاتل بفريزته وطبعه فهو لا يهاب المواجهة ولا يخشى التصادم ، ويعتمد على عاملين : مقدرته على التضليل ليصل إلى توزيع القوة التي أمامه وتفرقها حتى لا تعمل كوحدة متكاتفة وقوية ثم يعتمد على المؤثرات الافريقية التي تصيب الجيوش الأوربية وتسلب جنودها التسب والإعياء حينئذ يضرب ضربته » .

ثم يعقب هذا بقوله : « إنه في كل مرة من تلجئهم الظروف إلى مواجهة حالة قتال تقرب من أساليبنا الأوربية ، ويتحتم عليهم قبول المعركة يدب الخلل في صفوفهم ثم يسهل لنا التفوق عليهم لعدم تمكنهم من الوسائل الفنية العديدة التي بين أيدينا » على ضوء هذه التعليمات الصريحة قاد جرازياني جنوده في العمليات التي سبقت فتح فزان وهي عمليات بوليسية على حد تعبير إخواننا المولدين حينما يتحدثون عن جهاد الشعوب

وفي هذه الأثناء جاء بادوليو إلى ليبيا وتولى سلطتي الحاكم العام والقائد الأعلى « وكان هذا في نظر جرازياني فتحاً جديداً عبرعنه بقوله « بعد عشرين عاماً من التلكؤ والتردد والمزائم تسلم الأمور ليد عسكرية وتضع لأول مرة برنامج منسجم جامع وهي تطبيقه بإرادة قوية » .

وبهذا انتقلت السلطات العليا إلى العسكريين ، فأمر بأن تكتب هذه العبارة وتعلق على بابه « ليس لدى هذه القيادة خزينة لدفع مرتبات » . وذلك لاعتياد الحكومة الإيطالية على توزيع مرتبات نقدية وهدايا وأسلحة وذخيرة وقال إنه رفض من البدأ الدخول في مفاوضات أو إعطاء مواثيق أو وعود ، وصرح في كل مناسبة أن الحكومة تريد أن تعرف من هم أصدقاؤها ومن هم أعداؤها وأخذ يترنم بمقطوعة من شعر فرجيل الشاعر الروماني .

tu regere imperio populos Romano mentuto
Parcere subjectus et debellare Superbus

وتعريبه « تذكر أيها الشعب الروماني أنك ستدعى إلى حكم الشعوب فاعف عمن يلين لك واخضع الأقوياء لسلطانك » .

وهكذا نرى أن فزان فتحت لنا آفاقاً بعيدة نطل فيها على حوادث متعددة ونتعرف فيها على نفسية القواد وغرورهم ورأيهم فينا :

فلنقف قليلا لنحدد أثر الحوادث وتسلسلها التاريخي في فاصل قبل الدخول إلى القاطعة وحروبها الحديثة .

فنحن نعلم أن فزان كانت مستقلة تحت حكام من أمراء بني خطاب من قبائل الهوارة كما حكمها ملوك من السودان ولا تزال بقايا قصورهم وقبورهم قائمة . ونحن نذكر نقلا عن صاحب تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار « حوادث من أمراء فزان » في ولاية سليمان داي التركي وحروب صاحبها المنصور بن الناصر ابن المنتصر ورفضه دفع الأتاوة وعصيانه مع الوالي ثم حروبه وعودته وشكوى أهل فزان للسلطان أحمد بن السلطان محمد ابن مراد بن سليم بن سليمان فهذه حوادث تتكرر في كل عصر حتى عصر عبد الحميد . وكان أن أصبحت فزان منفى لرجال الأحرار من الأتراك في عهده والغريب أن يلجأ حكام روما الفاشيون إلى فزان والكفرة لفرض الإقامة الجبرية على فريق من أعداء العهد الفاشي ، فإذا جنود فرنسا حرر بعضهم وكان قد مضى عليهم سنوات وهم مبعدون من أوطانهم .

لنذكر بعد ذلك أن إيطاليا جمعت في أواخر سنة ١٩١٣ حملة قوامها ١٢٠٠ جندي إيطالياً ووطنياً تحت قيادة الكولونيل مياني ووجهتها من طرابلس إلى الجنوب واحتلت المراكز الهامة

حتى وصلت إلى مرزوق ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا كما ذكرنا ففي نهاية عام ١٩١٤ انسل الطليان منسحبين إلى الشمال تاركين الجنود الوطنيين وحدهم فدخل فزان السنوسيون مع حلفائهم من الطوارق وأقاموا بها حكما لم يدم طويلا لأن الأتراك أعدوا الكرة فزحزحوا السنوسيين عنها وعينوا إحسان ثاقب متصرفاً للاقليم وجعلوا المدعو خليفة زاويه في وظيفة محاسبجي للتصرفية حدث هذا في سنة ١٩١٧ ثم تولى الأخير السلطة في نهاية سنة ١٩١٨ ولما غادر الضباط الأتراك البلاد بعد عقد الهدنة — ثم ساد عهد من الفوضى والتنازع بين الأخير وجماعة سيف النصر وشيخ يدعى عبد النبي انتهى باستيلاء الأخيرين على مرزوق وطرد خليفه من القاطعة فلجأ الأخير إلى الطليان وهو بحالة يرثى لها فأعطاه جرانزياني منزلا وخادماً ووعده بأن يستخدمه في فتح فزان .

وضعت خطة الفتح بناء على إرشادات المارشال بادليو وروعيت فيها منتهى الدقة بحيث لم تتجاوز اعتمادات الصرف ٢١ مليون ليره إيطالية أي ما يقرب من ٢٠٠ ألف من الجنيهات المصرية يدخل فيها تكاليف تمهيد الطريق لغاية سبها وإصلاح الطريق من سبها إلى مرزوق ثم منها إلى غات على الحدود الفرنسية .

ثم كل هذا ابتداء من النصف الأول لسنة ١٩٢٩ وتحدد شهر ديسمبر لابتداء العمليات الحربية التي وضعتها القيادة العامة في طرابلس من ناحية تعبئة القوات المكلفة بالفتح وتهيئتها وإمدادها بمربات النقل وكل ما يتعلق بمراكز التموين والتجمع ونظام سوق الجيش وتركت على عاتق جرانزياني الناحية الفنية ناحية اختيار الضباط وتدريب القوة المكلفة بالزحف .

فحصر همه في اختيار أعوانه ووضع لذلك شروطاً ألزم نفسه باتباعها فاشترط .

١ — أن يكون الضابط على خلق قيم وجرأة وإرادة .

٢ — أن يكون من المتحمسين للأمور الاستعمارية .

٣ — أن يكون من الذين يتحملون المشاق ويرضون بالتخشن في العيش .

ولما عرف كيف يختار ضباطه فرض هذه الشروط على ضباط الصف ثم أخذ يختبر معلومات ومقدرة رجاله ففرض على القوة القيام بتمرينات متعددة على خاصيات حرب الصحراء واهتم بوسائل الارتباط والمخابرة مع الطائرات حتى يسهل الاتصال بين الوحدات وبعضها وبينها وبين القيادة وطبع كتاباً مختصراً عن فزان وأحوالها ووزعه على الجنود وضباط الصف وأخذ في تحضير خريطة مفصلة على أحدث ما وصل إليه علم السلطات من طبيعة الأرض والمناطق وأسماء البلاد والمسافات التي تفصلها .

ولم ينس خليفة زاويه الذي انضم مع الطليان على رأس مفرزة من الوطنيين ومعه مهدي موسى للانتقام من أعدائهما في مرزوق وتحركت القوتان في نهاية شهر أغسطس وقاتلت جماعة من المجاهدين تحت قيادة سيف النصر واحتلت واحة براق الواقعة على طريق سبها .

ولما وصل خبر احتلالها إلى طرابلس أصدر بادوليو أمره بالتقدم إلى مرزوق وأن تكون المقدمة مكونة من فوج من السيارات المدرعة ومعه كتيبه من جنود ارتيريا تحملها السيارات وتتبع كل هذا قافلة تحمل ما يكفي لمدة شهر من المؤن والذخائر ولما وصلت الحملة إلى براق وجدت أن سبها قد سقطت في يد خليفة وبهذا أصبح الطريق مفتوحاً إلى مرزوق .

يقف الطليان هنا موقفاً خاصاً يشيرون فيه إلى أخطائهم الماضية فهم يدرسون عمليات سنة ١٩١٣ ويقررون أن أسلافهم لم يفكروا في حماية مواصلاتهم[1] وكان تقدمهم لاحتلال مراكز العدو دون التفكير فيما تتعرض جنودهم إذا تركوا جيوباً للعدو يشن الغارة منها عليهم وكان أن سقطت حامياتهم وهزمت واحدة تلو الأخرى ويكشف جرانزياني عن فكره بقوله « إن هذه الأخطاء لن تتكرر مرة أخرى » ولذلك ترك الزعماء الوطنيين يتقاتلون في فزان . حربهم الداخلية الفانية التي تحضر للرق رؤوسهم وأخذ يستعد لحملة واسعة النطاق وكان ذلك في الشهور بين نهاية أغسطس و ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٩ حيث وصل جماة إلى سبها وأصدر تعليماته التي تتلخص في .

١ — اتمام تطهير الجزء الشمالي بأكمله واحتلال براق وسبها بالقوات النظامية .

٢ — السيرعة واحدة إلى واو الكبير على طريق مرزوق — السكفرة ومنها كانت الحملة التي وجهها العابد إلى سبها سنة ١٩١٤ .

(١) ظهرت هذه الأخطاء في حملة فلسطين ١٩٤٨